العرب
الثلاثاء 2020/02/11
السنة 42 العدد 11614

الفكر العربي هل يراوح مكانه أم يتقدم؟

كاتبة جزائرية تحلل المقاربات الفكرية العربية لإشكالية التحيز

في ظل واقع يموج بالصراعات والتجاذُبات بين مُختلف الأطراف، ونمط من العنف بات سائدًا على مختلف الأصعدة، تأتي أهمية بحث أسس تلك الصراعات بما تخفيه من تحيّزات كامنة في مختلف الخطابات، بُغية نقد ومساءلة الجذور العميقة لها ومن ثم تجاوزها ونقضها، وانطلاقًا من تلك القناعة يأتي كتاب الباحثة والكاتبة الجزائرية غزلان هاشمي "قراءة في تحيّزات الخطاب في الفكر العربي المعاصر" الصادر مؤخراً في الجزائر.

حنان عقيل
كاتبة مصرية

تُصدِّر الباحثة غزلان هاشمي كتابها «قراءة في تحيزات الخطاب في الفكر العربي المعاصر» الصادر عن دار «خيال للنشر والترجمة» في الجزائر بطرح عدد من التساؤلات مثل: كيف يتم تصوير الحقائق وإدراكها؟ ما هي نتائج النظرة الأحادية للأمور؟ كيف نقضي على الجاهزية والصفة التبجيلية والتقديسية لمتصورات الذات؟ وتسعى لمقاربة تلك التساؤلات عبر أربعة مباحث ضمّت: الإطار المفاهيمي لإشكالية التحيز، والسياقات العامة للبحث في إشكالية التحيز، وعرض بعض المقاربات العربية التي بحثت في إشكالية التحيّز، ثم التأكيد على أهمية الحوار كصيغة تعايش في المبحث الأخير.

غزلان هاشمي

أهمية الحوار في التخفف من الرؤية الأحادية وتقبل الآخر

يشي عنوان الكتاب بمضمون مُغاير لما يُقدِّمه، فبينما يشير العنوان إلى أن الكتاب بصدد بحث وتوضيح أشكال التحيز الكامنة في الخطابات الثقافية العربية، نجد سياق الكتاب وتوجهه لا يتوخى ذلك المعنى بأي حال؛ إذ تُبين الباحثة عبر كتابها كيف قاربت الكتابات الفكرية العربية إشكالية التحيّز ووضعية الذات في ظل مركزية غربية قارة ومُهيمنة، وهي في تلك الحالة المذكورة لا تسعى إلى النقد والتفكيك لتلك الأطروحات بقدر ما تتوافق معها وتتبنّى معظم مقولاتها.

مفهوم التحيز

توضح الكاتبة أن التحيّز يتأسس على مفهوم الانغلاق ومركزية الأنا وحضورها الدائم في كل الخطابات، فيتم تفسير كل الظواهر على اختلافها بالنظر إلى هذه الأنا، ويغيب خطاب الحقيقة ليُعوّض بخطابات تتوخى إقصاء غيرها ووسم أصحابها بكل سمات الانتقاص، وذلك في ضوء التنميطات الجاهزة والتهميش لكل مغاير، وهو ما يتم تحقيقه عبر عدد من الآليات مثل الإدراك الجزئي للظاهرة بواسطة تغييب الحقائق والتلاعب بها بما يناسب ميول الذات وأهوائها، والتعتيم أي إلغاء كل الصور الإيجابية عن الآخر من أجل بناء نسق معرفي منغلق عنه، وكذلك هدم مرتكزات القيميات المغايرة بخلق صور نمطية عن الذات والآخر.

من هذا المنظور، يتأسس التحيّز على مفهوم المركزية التي تعني احتفاء الذات باعتباراتها إلى حد التضخيم في مقابل تهميش المغاير، بالاعتماد على آليات خطابية محددة. ففي الغرب أتت كراهية العالم الغربي للآخر نتاج سنوات طويلة من سعي المؤسسات الرسمية السُلطوية إلى توجيه الرأي العام نحو ما يخدم مصالحها الخاصة، وبالتالي فهناك عدد من السياقات التي وجّهت وعي الباحثين نحو البحث عن الحقيقة في جوهرها لا في صياغات غربية متحيزة.

حينما نتوقف أمام ذلك التأسيس لمفهوم وموضوع البحث، نجد أن الكتاب قد يكون وقع في المأزق الذي يُعارضه، فإن كان ثمة خطاب غربي متعملق ومتضخم ومنغلق على نظرته المُتحيّزة يستحق النقد والفحص باستمرار، فإن المُنافحة عن خطاب عربي بديل غير قادر على مُجاوزة نرجسيته المتكئة على ماض وأفق تاريخي لا يُعد نقدًا لإشكالية التحيّز بقدر ما هو تأسيس لتحيّز بديل، بيد أن ذلك التحيز البديل سيظل عاجزًا عن الإقناع بخطابه المُنطلق من وضعية حضارية مُتدنيّة، طالما لم يضع حلولا ناجعة لتجاوز أزمة فواته الحضاري.

وفي سياق ما بعد الحداثة، تأتي تفكيكية جاك دريدا الساعية إلى القضاء على التحيّزات الكامنة في الخطابات المُنطلقة من مركزيات محددة، والتي ظهرت في شكل مُضمرات خطابية لغوية تهدف إلى إلغاء الاعتبارات المغايرة، فقد مهدت التفكيكية الطريق لتفكيك اللغة وفضح ممارساتها السلطوية، فبدأ اهتمام المفكرين العرب يتجه ناحية الخطابات الفلسفية الغربية والعربية لفضح الأنساق المضمرة وأيديولوجيا التحيز.

ومن ثم قارب المفكرون العرب الخطابات الفكرية لكشف المسكوت عنه ومراجعة المفاهيم المتوارثة والخطابات الفلسفية والدينية والأدبية التراثية.

وتشير الباحثة إلى أن ثمة سياقات عربية دفعت الباحثين للتعرف إلى التحيّزات الكامنة في الخطابات الغربية، ومن أبرز تلك السياقات المثاقفة؛ فظهور المصطلح في البيئة الفكرية العربية أسهم في توجيه العقل العربي نحو مساءلة الخطابات المستعارة من الغرب نظرًا لعدم خلو خطابها من إكراهات الآخر وحدود رؤيته وتحيّزاته.

بينما جاءت نقطة الانطلاق الثانية عقب هزيمة يونيو 1967 وخيبة المشروع القومي في تحقيق أهدافه، فارتكز فكر هذه المرحلة على التساؤل حول وضعية الذات ومرتكزات الهوية وانطلقت الدعوات لنقد العقل العربي ومراجعة التراث اللغوي والفكري ونقد الأيديولوجيا العربية التي تحمل مضمرات خطابية منغلقة أدت إلى جمود الفكر العربي.

وتوضح الباحثة أن ظاهرتيْ العنف والإرهاب قد نبهتا المفكرين العرب إلى أن اللغة ذات حمولات أيديولوجية تروّج إلى العنف من خلال تضليل الآخر وأبلسته، كما أن مصطلح الإرهاب الذي ظهر منذ تغير الواقع السياسي في العالم يطرح ضرورة مراجعة التوصيفات اللغوية المقدمة من قبل الغرب الهادفة إلى ضرب الوجود العربي، وكذلك العولمة التي تمارس سياسة الطمس والاستبعاد للتشكيلات الثقافية الأصيلة وتساعد على ظهور الفكر الامتثالي للآخر وذلك بتحويل كل المغايرات إلى عناصر هامشية.

مُقاربات عربية

استعرضت الباحثة الجهود الفكرية لستة مفكرين هم أنور عبدالملك، إدوارد سعيد، حسن حنفي، عبدالله إبراهيم، عبدالوهاب المسيري، طه عبدالرحمن، في بحث التحيزات الأيديولوجية في الخطاب. لكنها لم تُبيّن أسباب اختيارها لهذه الأسماء دون سواها.

وكانت البداية مع المفكر المصري أنور عبدالملك الذي أشارت إلى أنه كشف عن خطاب الاستشراق الهادف إلى تشويه صورة العرب والمسلمين وخلق مركزية حضورية متعالية، فنشر مقالا بالفرنسية عام 1963 بعنوان "الاستشراق في أزمة"، وكان ذلك من بدايات نقد الاستشراق حتى قبل كتاب إدوارد سعيد عام 1978، ثم مثّلت كتاباته تأكيدا على رفض المركزية الأحادية والبحث عن التعدد والحوار لا الصدام.

أما بالنسبة إلى إدوارد سعيد فقد تحدث عن تدخل المرجعية الاستعمارية في تحويل الشرق إلى صنعة لغوية غربية في خطاب الاستشراق، فغيبت المعرفة الحقيقية في محاولة لتوجيه الوعي نحو تقبل الصورة النمطية التي أنتجها الغرب، فيحذر سعيد من أن يتمثّل الشرق بالاعتبارات المُستبطنة في الخطابات الاستشراقية.

وفي السياق الناقد لمكامن الصورة المُتحيزة صنيعة الغرب تأتي جهود المُفكر المصري حسن حنفي الذي أسس علم الاستغراب بغية الانتقال من العلاقة التراتبية بين الأنا والآخر بما تحمله من التباسات أيديولوجية وتمايز بين صورة الأنا الغربية الموهومة بتضخماتها وصورة الآخر في هذه الأنا المتجهة نحو الانتقاص والتقزيم، سعيا للتعرف إلى كيفية تموضع الوعي الغربي في مركزية غير واضحة عبر التاريخ الحديث. وفي حديثها عن الناقد والمفكر العراقي عبدالله إبراهيم، أوضحت أنه سعى إلى استجلاء التناقضات الكامنة في الثقافات المتمركزة والتعرف إلى مضمرات الخطاب وتهيئة هوية الاختلاف المركبة من عدة احتمالات والتي تحمل داخل اعتباراتها نقد الذات ونقد الآخر وبناء نفسها من جديد انطلاقا من النقد المزدوج.

وكانت الباحثة في عرضها لأعمال المفكرين الثلاثة السابقين غير مُتبعة لمنهجية مُحددة في التعامل مع نقاط الارتكاز الرئيسة في أعمالهم، ومن ثم فقد استندت إلى الاقتباسات المرتبطة بموضوع الدراسة، ولم تتداخل كثيرًا لنقد أطروحاتهم الفكرية، باستثناء بعض التعليقات السريعة.

واختتمت الكاتبة الجزائرية مؤلفها بالتأكيد على أهمية الحوار في التخفف من الرؤية الأحادية وتقبل الآخر والنظر إليه كمكمّل للهوية والاختلاف باعتباره مقوما من مقومات الهوية، وهو تأكيد بديهي رُبما لا يحتاج إلى تكرار، ولكن سُبل تحقيق ذلك هي المسألة الإشكالية التي تحتاج إلى توضيح للإشكاليات المُعيقة لذلك وسُبل تجاوزها.

شجرة المعرفة الإنسانية لا تضاء إلا بالفكر (لوحة للفنان وليد المصري)

جليلة بكار أيقونة المسرح التونسي التي هزت بفنها ضمائر الناس

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

تابعت بمتعة كبيرة حوارا أجرته القناة الوطنية التونسية مع الممثلة القديرة جليلة بكار التي يصفها عشاقها بـ"أيقونة المسرح التونسي" نظرا لتألقها على خشبة المسرح على مدى أربعين عاما، ولما بذلته من جهود لتطوير هذا الفن، وجعله عاكسا لمشاغل وقضايا وهموم المجتمع الاجتماعية والسياسية والثقافية والنفسية، وملتزما بها.

جليلة بكار لعبت أدوارا مهمة في كل المسرحيات التي أنتجتها فرقة الجنوب لتعرف الشهرة خلال سنوات قليلة

قبل أن تقتحم الفنانة جليلة بكار مجال الفن الرابع، كانت طالبة تدرس الآداب الفرنسية في الجامعة التونسية التي كانت مطلع السبعينات تعيش انتفاضات متواصلة للمطالبة بالديمقراطية، وحرية الرأي، والتخلص من هيمنة الحزب الواحد وغطرسته، ومن قيود الرقابة المفروضة على جميع من كانوا يجرؤون على التمرد ضد طغيان الثقافة الرسمية، ورموزها في السلطة.

وبحماس، شاركت جليلة بكار في جل تلك الانتفاضات. وذات يوم وجدت نفسها مع مجموعة من الشبان، يحلمون مثلها بثقافة جديدة، وبفن يهزّ مشاعر الناس، ويعكس واقعهم الحقيقي الذي كانت السلطة القائمة تعمل على تغييبه، وتجميله بالشعارات والوعود الكاذبة.

ومع أولئك الشبان الذين كان البعض منهم قد دَرسَ في جامعات باريس ولندن وميلانو، انطلقت إلى مدينة قفصة بجنوب غربي البلاد لبعث فرقة مسرحية في تلك المدينة القريبة من مناجم الفوسفات، والتي يعيش أهلها فقرا ثقافيا رهيبا. ورغم المصاعب المادية والإدارية وغيرها، شرع أولئك الشبان في إعداد أول مسرحية كانوا يرغبون في أن تكون مضادة للمسرحيات السطحية والمبتذلة الرائجة في تلك الفترة.

وقد اختار أولئك الشبان أن تسلّط تلك المسرحية الضوء على مسيرة المناضل الكبير محمد علي الحامي الذي كان قد أمضى خمس سنوات في برلين بعد الحرب الكونية الأولى عاد بعدها ليؤسس نقابة وطنية للدفاع عن حقوق العمال التونسيين، ومقاومة الهيمنة الاستعمارية. لذلك طاف في جميع أنحاء البلاد، وزار منطقة الفوسفات ليخطب في جموع العمال الذين خرجوا لاستقباله ملطخين بغبار الأنفاق المعتمة، لكن السلطات الفرنسية تصدت له، وأجبرته على مغادرة وطنه ليعيش متنقلا بين العديد من البلدان قبل أن يموت في حادث سيارة بين مكة والمدينة وذلك عام 1928.

بعدها لعبت جليلة بكار أدوارا مهمة في جميع المسرحيات التي أنتجتها فرقة الجنوب لتعرف الشهرة في ظرف سنوات قليلة.

في نهاية السبعينات، تألقت جليلة بكار في العديد من المسرحيات التي أنتجتها فرقة "المسرح الجديد" التي أسسها في العاصمة نفس الشبان الذين خاضت معهم مغامرة فرقة الجنوب بقفصة.

ورغم العراقيل التي واجهتها، ثابرت تلك الفرقة على تقديم مسرحيات تحرج السلطة، وتثير غضب رموز الثقافة الرسمية. وتعترف جليلة بكار بأن البعض من المسؤولين الكبار في نظام بورقيبة، خصوصا الشاذلي القليبي الذي كان وزيرا للثقافة في الستينات، والكاتب الكبير محمود المسعدي الذي كان هو أيضا على رأس نفس الوزارة في السبعينات من القرن الماضي، ساندوا الفرقة في جهودها من أجل بعث مسرح ملتزم بقضايا المجتمع، وهموم الناس، وكانوا يغضّون الطرف عن المسرحيات التي تنتقد سياسة النظام القائم، وأخطائه السياسية والاجتماعية.

وقد ازدادت شهرة جليلة بكار اتساعا مع مطلع الثمانينات من القرن الماضي بفضل ثلاث مسرحيات شكّلت منعرجا هاما في تاريخ المسرح التونسي الحديث، وهي "العرس" و"التحقيق" و"غسّالة النوادر". ولا تزال المسرحية الأخيرة حاضرة في ذاكرة أحباء الفن الرابع لأن موضوعها تركز على نقد أوهام جيل السبعينات الذي تحمّس للأفكار الاشتراكية، وساند الثورات في جميع أنحاء العالم. وكانت جليلة بكار محقة حين أشارت في الحوار المذكور إلى أن المسرح الحقيقي هو الذي يقوم على النقد حتى ولو كان هذا النقد جارحا ومؤلما.

جليلة بكار.. فنانة صاحبة قضية ومبدأ

خلال فترة نظام بن علي، أسست جليلة بكار مع زوجها الفنان الكبير فاضل الجعايبي فرقة "فاميليا" التي قدمت العديد من المسرحيات التي أغضبت السلطات الرسمية. لذلك سعت هذه السلطات في أكثر من مرة لمنع عرض تلك المسرحيات، وتعطيل سعي الفرقة في مواصلة جهودها من أجل أن يظل المسرح كما كان حاله مع "فرقة الجنوب" بقفصة، ومع فرقة "المسرح الجديد" ملتزما بقضايا المجتمع، وبنضالاته من أجل الحرية والكرامة، ومتمردا على أجهزة الرقابة بجميع أشكالها.

وفي نهاية الحوار، أطلقت جليلة بكار صيحة هزت قلوب التونسيين حيث أنها أشارت إلى أن تونس تعيش الآن أوضاعا مؤلمة وخطيرة. فقد تخلصت من نظام بن علي الذي حارب بشدة حرية الرأي والتفكير إلا "أن القوى الظلامية المتحجرة التي برزت خلال السنوات الأخيرة ما فتئت تسعى إلى فرض قيود جديدة على الثقافة، وعلى جميع فروعها محاولة استعمال الدين، وما تسميه بـ'الأخلاق الحميدة' لتكميم الأفواه، وتعطيل كل المحاولات التي تهدف إلى تعميق الحرية، ونشر مبادئها لتكون عمادا للمجتمع الجديد الذي يطمح إليه التونسيون".

ومن خلال صرختها أثبتت جليلة بكار أنها ستظل حتى النهاية وفية ومخلصة لمسيرتها المسرحية الملتزمة، ولنضالها من أجل الحرية التي دونها يموت الفن، وتفقد الحياة معناها وروحها.